ألف حكاية وحكاية (٧٧)

أجمل يوم فى حياتنا

وحكايات أخرى

تأليف
يعقوب الشارونى



رسوم
عادل البطراوى

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقى
الفجالة - القاهرة

لعبة الإبداع

فى مدينةِ "الغنايم" ، بحضنِ الجبلِ الغربىِّ القريبِ من محافظةِ أسيوط ، قضَيْتُ ساعتَيْنِ حافلتَيْنِ بالحيويةِ ، مع مائةٍ وسبعينَ من رواد مكتبةِ الأطفالِ بقصرِ الثقافةِ. وقرأنا معًا قصة الحمامةِ والنملةِ ، والتى حكاها إيسوب ، حكيمُ اليونانِ فى القرنِ السادسِ قبلَ الميلادِ.



وهى قصةُ الحمامةِ التى أنقذَتِ النملةَ من الغرقِ ، عندما ألقَتْ إليها بورقةِ شجرٍ على سطحِ الماءِ ، فتسلَّقَتْها النملةُ. وفى اليومِ التالى ، عضَّتِ النملةُ الصيادَ الذى أرادَ أن يصطادَ الحمامةَ ، فطاشَ سهمُهُ ، ونجَتِ الحمامةُ.

ثم تَسابقَ الصغارُ ، يؤلِّفونَ للقصةِ مختلفَ العناوينِ أو يمثِّلونَ الحوارَ الذى دارَ بينَ الحمامةِ والنملةِ ، ويبتكرونَ فى هذا الحوار كثيرًا من الصُّوَرِ والانفعالاتِ والتعبيراتِ ، لأن حيويةَ لعبةِ التمثيلِ هنا تدورُ حول الابتكار ، بدلاً من تكرار ما قالَهُ الآخرونَ.

وفى النهايةِ سألْتُهم: "لنفرضْ أن الحمامةَ لم تجدْ أيةَ ورقةِ شجرٍ، فماذا كانَ يُمكِنُها أن تفعلَ ؟"

قالَ البعضُ: "تُلقى إلى النملةِ بغصنِ شجرةٍ."

وقالَ آخرون: "تلتقطُها بمنقارِها."

أو: "تحملُها على جناحِها."

وعندَ كلِّ اقتراحٍ، تتعالَى الأصواتُ مُبيِّنةً عدمَ سلامتِهِ.

وأخيرًا وقفَتْ فتاةٌ فى الثامنةِ من عمرِها، هادئةُ الملامحِ، بسيطةُ الملابسِ، وقالَتْ فى ثقةٍ وثباتٍ:

"تنتزعُ الحمامةُ بمنقارِها ريشةً من جناحِها، وتُلقيها على وجهِ الماءِ قربَ النملةِ."





عندئذٍ توقَّفَتِ المناقشاتُ والاعتراضاتُ، وارتفعَ التصفيقُ من الجميعِ، تحيةً لهذا التفكيرِ الإبداعيِّ المُبْتَكَرِ!!

الأسد لا يقتل

فى عيدِ ميلادِ "نهرو" زعيمِ الهندِ ، ذهَبْنا إلى حفلِ المركزِ الثقافيِّ الهنديِّ ، لنشاهدَ فيلمَ "الأسد والأرنب" ، الذى يحكى قصةَ الأسدِ ، الذى اعتادَ قتلَ حيواناتِ الغابةِ ، فعرضَتْ عليه الحيواناتُ أن تُرسِلَ إليه فى كلِّ يومٍ ما يكفى طعامَهُ من الحيواناتِ ، بدلَ أن يقتلَها بغيرِ مُبرر.

قالَ الأسدُ: "أوافقُ .. لكنْ إذا أرسلتُم إلَيَّ منَ الأرانبِ ، فيجبُ أن ترسلوا أربعةً."

فاقترحَ زعيمُ الأرانبِ أن يذهبَ بمفردِهِ. وعندما وصلَ ، وجدَ الأسدَ غاضبًا يقولُ: "لماذا تأخَّرْتَ؟ وأين بقيةُ الأرانبِ؟"

هنا تَظاهرَ الأرنبُ بالخوفِ ، وقالَ: "قابلَنى أسدٌ آخرُ ، وأكلَ بقيةَ زملائى."

قالَ الأسدُ وقد ازدادَ غضبُهُ: "هيَّا لنرى هذا المُعتدى."

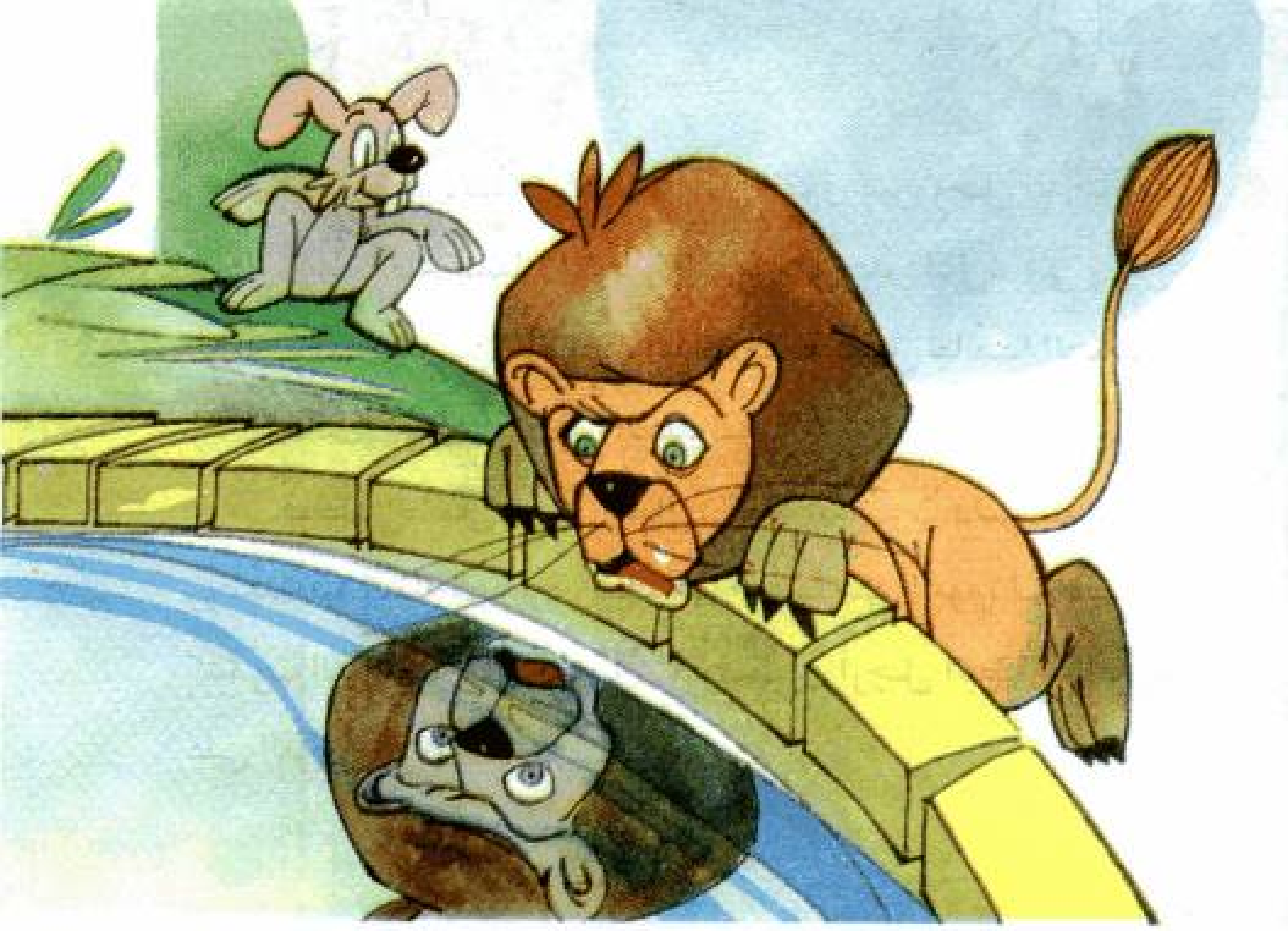


وأخذَ الأرنبُ الأسدَ إلى بئرٍ عميقةٍ ، وقالَ له: "هنا يوجَدُ ذلكَ الأسدُ الآخرُ."

وبسببِ غضبِ الأسدِ ، ظنَّ أن صورتَهُ في الماءِ هي الأسدُ المُعتدي ، فقفزَ يهاجمُهُ في قاعِ البئرِ ، وكانَتْ تلك هي نهايتَهُ.

وبعدَ انتهاءِ الفيلمِ ، وقفَتْ سالي ، ذاتُ الثمانيةِ أعوامٍ وقالَتْ: "أنا أعرفُ أن زوجةَ الأسدِ هي التي تقومُ بالصيدِ ، وليسَ الأسدَ ، كما أعرفُ أن الأسدَ لا يصطادُ إلا إذا كانَ جائعًا!!"

ورغمَ إعجابِنا بالقصةِ وبالفيلمِ ، فقد صفَّقْنا لهذه القدرةِ على التفكيرِ الناقدِ ، والملاحظاتِ الذكيةِ ، من الصغيرةِ سالي.



راعية الإبداع

فى مدينةِ الأقصرِ ، التقَيْتُ بعددٍ كبيرٍ من المُعلّمينَ فى مدارسِ جمعيةِ الصعيدِ للتربيةِ والتنميةِ ، بمحافظتى قنا وسوهاج. وخلالَ اللقاءِ ، حكَتْ لنا "عايدة" مدرِّسةُ الابتدائى ، حكايةَ تلميذٍ لها ، أثارَ اهتمامَها بأسلوبهِ العلميِّ فى التفكيرِ ، قالَتْ:



"ذاتَ يومٍ ، سألْتُ التلاميذَ عن الفرقِ بين رجْلِ الدجاجةِ ورجلِ البطَّةِ ، فلم يستطعِ الإجابةَ إلا تلميذٌ واحدٌ ، قالَ: "فى رجْلِ البطةِ يوجدُ جلدٌ بين الأصابعِ ، أمَّا الدجاجةُ فليسَ لها هذا الجلدُ."

سألْتُ: "وما فائدةُ هذا الجلدِ للبطةِ؟"

فوقفَ الطفلُ نفسُهُ ، وقالَ: "لقد أحضَرْتُ دلوًا به ماءٌ ، ووضعْتُ فيه البطةَ الصغيرةَ ، فساعدَتْها أرجلُها على العومِ. ثم وضعْتُ كتكوتَ الدجاجةِ ، فكادَ يغرقُ ، فعرفْتُ أنَّ أرجلَ البطةِ تساعدُها على العومِ."

وصفقَ التلاميذُ لهذا الطفلِ ، الـذى يسـألُ الأسـئلةَ ، ويقـومُ بالتجـاربِ، ويصـلُ إلى نتـائجَ صحيحةٍ.

قـالَتْ عـايدة: "سـألْتُ ذلـك الطفلَ: وهل يُرحِّبونَ في البيتِ بأن تقومَ بهذه التجاربِ؟"

قالَ: "أمِّى تُشجِّعُنى عليها ، بل هى تجلسُ معى أثناءَ مشاهدةِ التليفزيون ، تشرحُ لى ما يصعبُ أن أفهمَهُ."

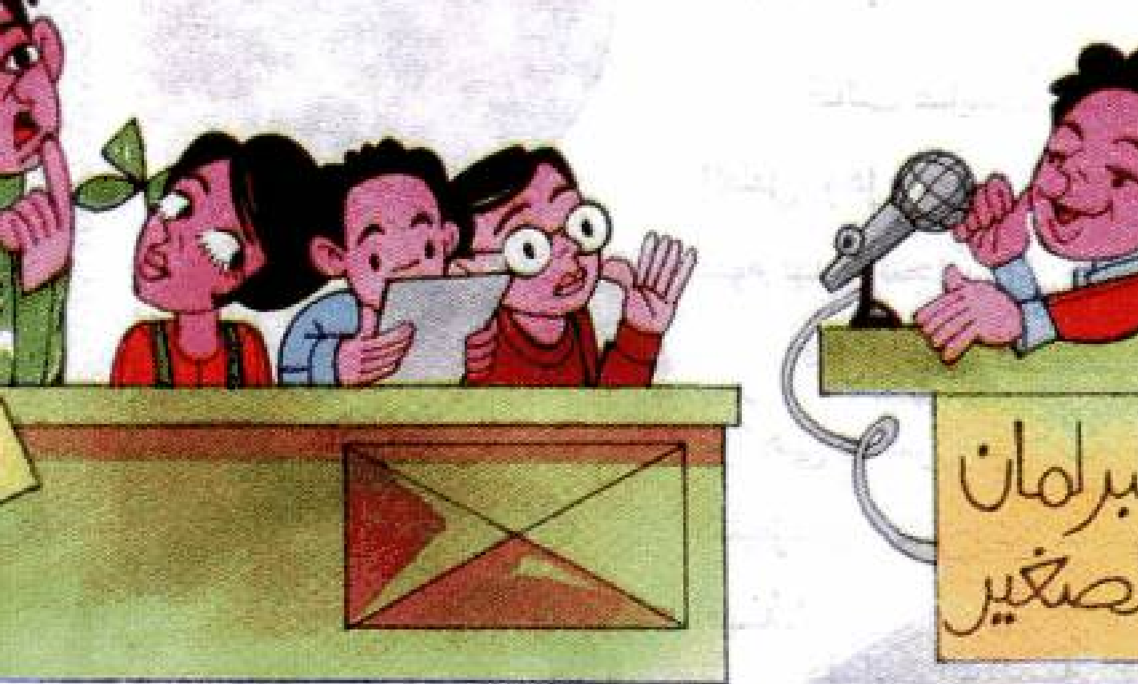
وقـالَتِ المعلمـةُ: "فذهبْـتُ لزيـارةِ هـذه الأمِّ ، فوجدْتُـها سـيدةً بسيطةً ، لكنها ترحِّبُ دائمًا بأسئلةِ ابنِها. وإذا لم تعرفِ الإجابةَ ، تنصحُهُ بسؤالِ أختِهِ الكبرى ، أو معلِّمِهِ فى المدرسةِ."

واكتشفْتُ أن الأمَّ هى التى شجَّعَتِ ابنَها على أن يسألَ ، وأن يبحثَ عن الإجاباتِ ، وأن يقومَ بالتجاربِ ، وأن يُبدِعَ ، رغم أنها هى نفسها لا تكادُ تقرأ أو تكتبُ.



أجمل يوم في حياتنا

هذه رسالةُ بإمضاءِ تلاميذِ الصفَّيْنِ الرابعِ والخامسِ، بالمدارسِ الابتدائيةِ بجمعيةِ الصعيدِ للتربيةِ والتنميةِ بالأقصرِ. قرأتُها مراتٍ ومراتٍ، ورأيْتُ أن يقرأها معي كلُ الآباءِ والأمهاتِ. تقولُ الرسالةُ:




أجملُ يومٍ مرَّ علينا حتَّى الآنَ، يومُ ذهابِنا إلى قصرِ الثقافةِ، عندما قدَّمْنا على المسرحِ الضخمِ عرضَنا، وهو "البرلمان الصغير". قدَّمْناه بطريقتِنا، وتحدَّثْنا عن مشاكلِنا. وكانَ إحساسُنا قبلَ العرضِ هو الخوفَ الرهيبَ من شكلِ المسرحِ الكبيرِ، ونحن فوقَه "مثل النمل". لكن عند رفعِ الستار، بدأنا كلُّنا نتحاورُ بجرأةٍ وشجاعةٍ أمامَ الجمهور.

قُلْنا إننا نريدُ من أمهاتِنا وعائلاتِنا أن تُعامِلَنا معاملةً حسنةً ، وتُحافِظَ على كرامتِنا ، بدلاً من "الشخط" والأوامرِ طوالَ الوقتِ. لذلك طَلَبْنا أن تُنظِّمَ المدرسةُ لقاءً للآباءِ والأمهاتِ ، مع أحدِ المُتخصِّصينَ في التربيةِ.

وتكلَّمْنا عن أستاذِ الرسمِ الذى يقطعُ الكُرّاساتِ ويمزِّقُها ، عندما يرى أن الرسمَ "وحش" أو غيرُ جميلٍ ، مع أننا لا نعرفُ كيفَ نجعلُ الرسمَ "موش وحش."

وناقَشْنا الواجباتِ الكثيرةَ التى لا نقدرُ عليها ، وطالَبْنا أن "تقل شوية."

كما عرَضْنا موضوعَ "الأبله" المشرفةِ على "الفسحة" ، عندما نشكو لها أن أحدًا ضرَبَنا، فتقولُ: "معلش ... معلش" ، و"احنا زهقنا" من كلمة "معلش"!!

وبعد نهايةِ العرضِ ، سمِعْنا تصفيقَ الناسِ عاليًا ، وشعرْنا بالفخرِ، لأننا عَبَّرْنا عن رأينا بحريةٍ وشجاعةٍ.

إجابة لا يتوقعها أحد !!

فى لقاءٍ مُوسَّعٍ بمدينةِ الأقصر ، مع عددٍ كبيرٍ من المُدرِّسينَ والمدرساتِ للمرحلةِ الابتدائيةِ ، كانَ النقاشُ يدورُ حولَ أساليبِ عقابِ الأطفالِ. وقد حكتْ إحدى المُدرِّساتِ الواقعةَ التاليةَ ، قالَتْ:



سألْتُ تلاميذى فى الصفِّ الخامسِ الابتدائىِّ: "هل توافقونَ على الضربِ كعقوبةٍ؟"

وكانَتِ الإجابةُ من الجميعِ ، أنهم يوافقونَ ، لأنهم وجدوا المجتمعَ كلَّهُ يُقِرُّ ذلك.

قالَتِ المعلمةُ: وبدأتُ مع الصغارِ حوارًا طويلاً ، أوضحْتُ لهم فيه أضرارَ الضربِ ، والآثارَ السلبيةَ للإيذاءِ الجسدىِّ والنفسىِّ للأطفالِ، لأنه يُشعِرُهم بالإهانةِ والإحباطِ ، وبفقدِ الحبِّ والأمانِ ، مع نموِّ الميولِ العدوانيةِ عندَ الأطفالِ ، وظهورِ أمراضٍ نفسيةٍ تستمرُّ مع الإنسانِ طَوالَ عمرِهِ ، مثلِ القلقِ والكذبِ ، بل والتخريبِ والسرقةِ.

قالَتِ المُدرِّسةُ: وفى نهايةِ الحوار ، عدْتُ أسألُ نفسَ السؤالِ الذى بدأتُ به الحديثَ ، فأجابَ عشرون أنهم لا يوافقونَ على الضربِ كأسلوبٍ للعقابِ ، فى حين أجابَ خمسةَ عشرَ ، بينهم عددٌ كبيرٌ من الفتياتِ ، أنهم يوافقونَ.

وعندما سألْتُهم عن سببِ هذا الإصرار ، سمعْتُ أغربَ إجابةٍ كنْتُ أتوقَّعُ سماعَها. قالوا:

"لقد اقترحَ الزملاءُ ، بدلاً من الضربِ ، عقوباتٍ أخرى ، مثلَ الحرمانِ من المصروفِ ، أو وضعِ قيودٍ على الخروجِ من البيتِ ، أو المنعِ من مشاهدةِ التلفزيون ، وهذه عقوباتٌ تحرمُنا من أشياءَ نعتبرُها مهمةً فى حياتِنا. أما الضربُ ، فقد درَّبْنا أنفسَنا على أن نتلقَّاهُ بغيرِ اهتمامٍ، وكأنهم يضربون شخصًا آخرَ غيرَنا!!"

من الذى تنازل عن الفدان؟

فى الفترةِ التى اشتغلْتُ خلالَها بالقضاءِ ، كمستشار بهيئةِ قضايا الدولةِ ، حدثَتْ أمامى وقائعُ قضيةٍ لا أنساها.

كانَ ذلك فى محكمةِ قنا ، وكانَ موضوعُ القضيةِ هو إثباتَ تنازُلِ سيدةٍ لأخوتِها الرجالِ عن ميراثِها الشرعىِّ من والدِها ، والذى كانَ مُجرّدَ فدانٍ واحدٍ من الأرضِ. ونادى حاجبُ الجلسةِ اسمَ السيدةِ ، فتقدَّمَ إلى منصةِ القاضى شخصٌ قد تغطَّى من قمةِ رأسِهِ إلى أطرافِ أصابعِ قدَمَيْهِ ، بملابسَ سوداءَ ثقيلةٍ.

وسألَ القاضى: "هل أنتِ فلانةُ؟!!

وبصوتٍ خشنٍ جاءَ الردُّ: "أيوه."



وظهرَ الترددُ على وجهِ القاضى ، فقد شعرَ بالشكً فى أن الذى يقفُ أمامَهُ رجلُ ، جاءَ ينتحلُ شخصيةَ السيدةِ المتنازلةِ ، ليفوزَ بميراثِها.

عندئذٍ تقدَّمَ محامى السيدةِ ليُنقِذَ الموقفَ ، فقالَ للقاضى: "فى قرى قنا ، تعرفُ البنتُ منذُ طفولتِها أنه من العيبِ أن تخرجَ أرضُ الآباءِ والأجدادِ من ملكيةِ الأخوةِ الذكور ، لأن مكانتهم ونفوذَهم ، يعتمدان على مقدار ما يملكونَ من أرضٍ."

وبعدَ انتهاءِ الجلسةِ ، همسَ القاضى قائلاً لى: "هل رأيتَ كيف أن التربيةَ الخاطئةَ ، تؤكّدُ قيمًا تقومُ فى حقيقتِها على التقليلِ من شأنِ المرأةِ، وتبرِّرُ أن يسلبَ منها الرجالُ ما قرَّرَهُ لها الشرعُ والقانونُ من حقوقٍ؟"



لو كنتم فى مؤتمر الأطفال

فى نادى الطفلِ التابعِ لجمعيةِ الرعايةِ المتكاملةِ بعين حلوان، فى شقةٍ بإحدى العماراتِ التى انتقلَ إليها الذين هدمَ الزلزالُ بيوتَهم ، وفى لقاءٍ مع أبناءِ وبناتِ بعضِ المدارسِ الابتدائيةِ والإعداديةِ ، سألْتُهم: "لو كنْتُم قد اشتركْتُم فى مؤتمرِ الأطفالِ الذى أقيمَ أخيرًا ، فما هى التوصياتُ التى كنتم ستُطالِبونَ بها ، ولم تردْ ضمنَ ما أعلنَ عنه الأطفالُ المُشاركونَ فى المؤتمرِ؟"

قالَتْ أسماء ، وعمرُها ١١ سنةً: "كنتُ سأطالبُ بالتقليلِ من الواجباتِ المدرسيةِ."



وقالَ أحمدُ وعمرُهُ ١٢ سنةً: "نُريدُ تحويلَ كل المدارسِ إلى نوادٍ حقيقيةٍ للرياضةِ والقراءةِ وممارسةِ الفنونَ والهواياتِ ، وذلك في أيامِ العطلةِ الأسبوعيةِ ، وخلالَ شهورِ إجازةِ الصيفِ الطويلةِ ."

وقالَ مصطفى ووافقَتْهُ مريم: "نرجو تنظيم زياراتٍ ورحلاتٍ يرى فيها كلُ أبناءِ مصرَ المتاحفَ والمناطقَ الأثريةَ والصناعيةَ ، مثل المتحفِ المصريَ والإسلاميَ ، ومتحفِ سوزان مبارك للطفلِ ، وأهرامِ الجيزةِ وسقارةَ ، وبانوراما انتصار حربِ أكتوبر ، ومكتبةِ القاهرةِ الكبرى."

أما زينبُ محمد ، وعمرُها ١٣ سنةً فقالَتْ: كنتُ سأطالبُ الآباءَ بأن يتوقفوا عن الضربِ والألفاظِ الجارحةِ والصراخِ فينا طَوالَ الوقتِ ، وأن يصبحوا أصدقاءً لنا ، يتفاهمونَ معنا ، ويحترمون مشاعرَنا وأفكارَنا."



ماذا يريد أن يرسم؟

شاهدْتُ طفلاً فى الرابعةِ من عمرهِ ، قد أمسكَ فى قبضةِ يدِهِ بأحدِ الأقلامِ المُلوَّنةِ ، وبدأ يخط بقوةٍ على ورقةٍ خطًا من أعلى إلى أسفلَ، مُحركًا يدَهُ بغيرِ تردُّدٍ. ثم وضعَ الطفلُ ذلكَ القلمَ ، وأمسكَ بقلمٍ من لونٍ آخرَ ، وخطَّ خطًّا آخرَ بجوارِ الأولِ.

وسألَتْنى أمُّهُ: "ماذا يُريدُ أن يرسمَ ؟"

وقبلَ أن أجيبَ ، قالَ الطفلُ: "لا شىءَ... الألوانُ تُعجِبُنى."

ثمَّ استمر يملأ الورقةَ بتشكيلٍ رائعٍ جميلٍ من الخطوطِ والألوانِ.

قلْتُ لوالدةِ الطفلِ: "كلُّ الأطفالِ فنَّانونَ. إنهم يسعدونَ وهم يشاهدون الألوانَ أمامهم على الورقةِ ، ولا يسألونَ أنفسَهم ما فائدتُها.. يكفى أنهم يَرَوْنَها جميلةً أمامَ عيونِهم."

ثم قلْتُ لنفسى: "يجبُ أن نتعلَّمَ من الأطفالِ كيف نستمتعُ بالشيءِ الجميلِ ، حتى إذا لم تكنْ له فائدةٌ غيرُ جمالِهِ !"